بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تم تأليف هذا الكتاب في أحوال عجيبة هى أحوال بأس وخطر. فلا غرابة بينها وبين موضوع الكتاب الذى أدرته عليه. لأننا لا نتكلم عن عمر بن الخطاب إلا وجدنا أننا على مقربة من البأس ومن الخطر فى آن.

فما شرعت فى تحضيره وبدأت فى الصفحات الأولى منه حتى رأيتنى على سفر بغير أهبة إلى السودان. فوصلت إليه وليس معى من مراجع الكتاب إلا قليل، وكانت الصفحات الأولى التى كتبها فى القاهرة مما تركته مع المراجع الكثيرة فيها، فأعدت كتابتها فى الخرطوم ومضيت فيه هنالك حتى انهيت من أكبر شطريه. واستغنيت بمراجع الخرطوم عن المراجع التى أعجلنى السفر عن نقلها، لأن أدباء السودان وفضلاءه يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع، ويجدون بها أسخياء مبادرين إلى الجود، فلا أذكر أننى طلبت كتابًا فى المساء إلا كان عندى فى بكرة الصباح.

وإنى لأتوفر على كتابته وأحسبنى منتهيًا منه فى السودان إذ رأيتنى مرة أخرى على سفر بغير أهبة إلى القاهرة، فعدت إليها بالطائرة ألتمس العلاج السريع. لأن يدى أوشكتا أن تعجزا عن تناول القلم بما عراهما من ثآليل "الخريف"

فعدت وما يشغلنى عن إتمامه شاغل فى السفر والمقام، ولم أحسب هذا البأس فى الحالتين من موانعه وعراقليه، لأننى ألفت بعض كتبى الكبار فى أحوال تشبه هذه الأحوال. فألفت كتابى عن "ابن الرومى" بين السجن ونذره ومقدماته، وألفت كتابى عن "سعد غلول" وأنا غير مستريح من كفاحة، وكلاهما من آثر الكتب عندى وأكبرهما فى الموضوع وفى عدد الصفحات.

إنما حسبت هذا البأس من مطابقاته وموافقاته، ومن وضع الشىء فى

موضعه على نحو من الأنحاء، ولم أعده من حرج التأليف كما عددته من مهيئات جوه، ولاسيما حين ألفيتنى أدرس آثار الحركة المهدية وأتقلب بين مشاهدها وميادينها. وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين والفيلة فى مواقع فارس، ومن القتال بين الراجلين والسفن المسلحة فى مواقع الخرطوم وأم درمان فهذه عقيدة وتلك عقيدة، ولكن العقيدة التى ظفرت كان معها حليف من الغد المأمون، ولم تكن العقيدة التى فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل.

ولكن الحرج كل الحرج فى التأليف إنما كان فى محاسبة عمر ابن الخطاب، أو ليس الحرج فى الحساب من العمريات المأثورات؟!

فالناس قد تعودوا ممن يسمونهم بالكتاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا وأن يقرنوا بين الثناء والملام، وأن يسترسلوا فى الحسنات بقدر لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها، فإن لم يفعلوا ذلك فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتحيز، وهم أقل إذن من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون، ولا يعجبون إلا وهم متحفزون لملام.

عرض لى هذا الخاطر فذكرت قصة العاهل الذى تحاكم إلى قاضية مع بعض السوقة عقار يختلفان على ملكه فحكم القاضى للسوقة بغير العدل ليغنم سمعة العدل فى محاسبة الملوك، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يبتغى الرياء بظلمه. فكان أعدل عادل حين بدا كأنه يحرص على مال مغصوب ويجور على تابع جسور.. لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم، وقاضية قد ظلم وهو يتراءى بالإنصاف.

قلت لنفسى: إن كنت قد أفدت شيئًا من مصاحبة عمر بن الخطاب فى سيرته وأخباره فلا يحرجنك أن تزكى عملاً له كلما رأيته ألا للتزكية، وأن زعم زاعم أنها المغالاة، وأنه فرط الإعجاب.

وهذه هى الأسوة العمرية فى الحساب.

فالحق أننى ما عرضت لمسألة من مسائله التى لغط بها الناقدون إلا وجدته على حجة ناهضة فيها، ولو أخطاه الصواب.

وإن أعسر شىء أن تحاسب رجلاً كان أشد أعدائه لا يبلغون من عسر محاسبته بعض ما كان يبلغة هو فى محاسبة نفسه، وأحب الناس إليه.

ذلك رجل قل أن يجوز عن القصد وهو عالم بجوره، وقل أن يتيح لأحد أن يكسب دعوى الإنصاف على حسابه، إلا أن يكسبها أيضًا على حساب الحق والنقد الأمين.

فإذا عرفت منحاه من الخلق والرأى، وسلمت له مزاجه ووجهة تفكيره، فكن على يقين أنه لن يتجافى عن النهج السوى ولن يتعلق بأمر يعدوه الصلاح، ويشوبه السوء.

وذاك أحرج الحرج الذى عانيته فى نقد هذا الرجل العظيم، وتلك حيطة معه إن لم يستفدها الكاتب وهو مشغول بعمر ونهج عمر فشغله عبث ذاهب فى الهواء.

وعلم الله لو وجدت شططًا فى أعماله الكبار لكان أحب شىء إلى أن أحصيه وأطنب فيه وأنا ضامن بذلك أن أرضى الأثرة وأرضى الحقيقة، ولكنى أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه فى مقدورى: إن هذا الرجل العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقدًا ومؤاخذة، ومن فريد مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الإعجاب فى الحكم له أو عليه يلتقيان.

وكتابى هذا ليس بسيرة لعمر ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التى تقصد بها الحوادث والأنباء، ولكنه وصف له ودراسة "لأطواره ودلالة" على خصائص عظمته واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة، فلا قيمة للحادث التاريخى جل أو دق إلا من حيث أفاد فى

هذه الدراسة، ولا بمعنى صغر الحادث أن أقدمه بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث، إن كان، أوفى تعريفًا بعمر وأصدق دلالة عليه.

وعمر بعد رجل المناسبة الحاضرة فى العصر الذى نحن فيه، لأنه العصر الذى شاعت فيه عبادة القوة الطاغية، وزعم الهاتفون بدينها أن البأس والحق نقيضان. فإذا فهمنا عظمًا واحدًا كعمر بن الخطاب فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلاً كان غاية فى البأس غاية فى العدل وغاية فى الرحمة.. وفى هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفى به من ليس بميئوس الشفاء.

وإنه لجهاد جدير لعمر بن الخطاب، يطيب لنا أن نوجزة فى كتاب.

عباس محمود العقاد

obeikandl.com